كما بدأت تنتهي..

حين تقرأ الآية الكريمة (يوم نطوي السماء كطي السِّجل للكتب، كما بدأنا أول خلق نعيده، وعدًا علينا إنا كنا فاعلين)، فإن إحساساً مرهفاً ينتابك ويذكرك بأن لكل بداية نهاية، وكل شيء إلى زوال، ويبقى وجه ربك ذو الجلال والإكرام، وما من شيء يبدأ حتى ينتهي ويتوقف..

هل هذا الحديث بجديد على أي أحد منكم؟ وهل نقول شيئاً جديداً غير معروف أو بدعا من القول لم يسبقنا إليه أحد؟ بالطبع لا، فما هذا الحديث إلا من المسلمات أو حقائق الحياة، ولكن مع كل هذا الفهم والوعي والإدراك عند الجميع، إلا أنه يبدو المرء منا أحياناً وكأنه يسمع بهذه الحقيقة لأول مرة!!

ماذا أريد أن أصل إليه من هذا الحديث؟

دون كثير شروحات وتفصيلات نريد من هذا الحديث أن ندعو إلى أهمية استيعاب حقائق ونواميس الكون، وأن كل شيء إلى زوال لا محالة، فالمسألة ليست أكثر من مجرد وقت أو زمن وسيمضي وفي الأثناء تتغير الكثير من الأمور.. البشر والشجر والحيوان والجماد وغيرها كثير كثير..

من هنا علينا ألا نقف كثيراً أمام الكثير من المتغيرات الحاصلة معنا وبنا وفينا لنتساءل باندهاش : لماذا؟ لكن الأصل أن ندركها ونعيها وأن ما حدث كان ليحدث، فالتغيير سنّة من سنن هذا الكون، فنعمل وفق ذلك الجهد على استمرارية عجلة الحياة وبإيجابية أكثر، لا الجلوس والبكاء على اللبن المسكوب كما تقول العامة.. تصور لو أنك اشتريت ساعة ثمينة وفي لحظة من عدم الانتباه وقعت منك فانكسرت أو أصابها ما يعيبها، فهل ستجلس دهراً تبكي وتندب حظك أم أنك ستحذر مستقبلاً في تعاملك مع مثل هذه الأشياء الثمينة لتستفيد منها لأطول فترة ممكنة، مع بقاء حقيقة زوالها وارداً أمامك على الدوام، فإذا ما حان وقت زوالها بصورة وأخرى، لا تجلس وتضيع الوقت في البكاء والنحيب والندم والحسرة.

هكذا الحياة تسير، وهكذا حقيقتها.. اليوم قد تكون في منصب رفيع ومكانة عالية يشير إليك الجميع بالبنان، وفجأة تجد نفسك خارج دائرة الاهتمام لأي سبب من الأسباب، ولن تجد من كانوا يشيرون إليك قبل أيام.. هل يجزعك هذا الأمر؟ بالطبع نعم، ولكن هل تستمر على هذا الجزع حيناً من الدهر طويلا؟ الأصل أن تقول لا.. لا يجب أن أجزع لذلك، لأن سنة الزوال وعدم الخلود قد حان وقت تفعيلها معك في الأمر الذي كنت عليه.

لهذا أقول بأنه لا يجب أن يفرح أحدنا بأمر دنيوي كثيراً، فلا المناصب ولا الكراسي ولا البنين ولا القناطير المقنطرة من الذهب والفضة والأموال وغيرها من متاع الدنيا، ولا حتى البشر يبقون، الكل إلى زوال، فإن كنا نعي هذه الحقيقة، فلماذا نحزن إذاً إن فقدنا وضعاً مادياً معيناً على سبيل المثال، ونضرب أسداساً في أخماس ونظل نتحسر ونتأسف؟ أليس من الإيجابية في ها هنا مواضع أن نتعظ ونتعلم ونبدأ البناء على الفور؟ أليس هذا أفضل في سبيل حياة إيجابية مثمرة؟

أعتقد ذلك، وربما هناك من يخالفني الرأي.. لا أدري، ربما!